

أ/ خلف محمد نجيب

مما لا جدال فيه أن علم الآثار يقدم الكثير من المعلومات الجديدة للتاريخ (1)، هذه الحقيقة تصبح ذات أهمية حيوية ، عندما نتحدث عن المرحلة الوسيطة في المغرب على العموم وفي المناطق السهبية والصحراوية منه على الخصوص (2) . ذلك أن عالم الآثار ، والمؤرخ للعمران ، يجد نفسه عادة أمام مشكلة تتلخص في قلة الوثائق المكتوبة (3) وتنوع هذه الأخيرة من حيث المضمون - حيث عادة ما يطفى الجانب الديني والأدبي فيها عن سواء من تاريخ وجغرافيا وعمران .

وحتى وإن توفرت لدينا بعض المصادر التاريخية أو الجغرافية فأولهما تختص عادة بسرد الوقائع والأحداث السياسية والحربية وتخصص اهتماما للملك وحاشيته متناسية أحداث " العامة " . أما ثانيهما فغالبا ما تسلط الأضواء على الممالك والمسالك والمدن التي تمر بها الطرق العامة ، وتغفل الحديث عن ماعداها من القرى والمدن الداخلية ، البعيدة عن هذه المسالك (4) ، و عليه فدراسة القصور تتطلب جهدا علميا كبيرا وعملا متواصلا ، الشيء الذي يدفع بعالم الآثار ، والمؤرخ للعمران ، إلى مزيد من الاطلاع على عدد كبير من المخطوطات المختلفة ، المحفوظة بالزوايا والمساجد والمكتبات العامة

والخاصة ، لجمع المعلومات المتناثرة المتعلقة بموضوع العمران ، حتى يكون على بينة من أمره .

أما المرحلة الثانية من العمل فتتركز أساسا على تمحيص المادة العلمية ونقدها و تصحيحها باستعمال المناهج المتوفرة ، علما أن أغلبية المخطوطات كثيرا ما تكون قد ألفت لأغراض معينة (دينية أدبية أو علمية) لهذا يجب تناولها بحذر شديد ، وبعد غربلة المعلومات المتوفرة في المصادر والمحفوظات والإستفادة منها ، لا بأس من دراسة المقالات المختصة والكتب الحديثة التي تناولت تاريخ القصور وعمرانها (5) بشكل عام أو أشارت إلى تطور عمران قصرما بشكل خاص .

إن عملية نقد المادة التاريخية تبقى عملية صعبة التحقيق تحتاج إلى الوقت الكافي ، فقد يصادف الباحث نفسه أمام سجل ضخم من المعلومات ، ولذلك فالإقبال على دراسة تطور عمران القصور تحتم على هذا الأخير الاستفادة من خيارات اختصاصات عديدة ، إن مثل هذا العمل العلمي لا يتحقق الا بتضافر جهود مجموعة بحث متنوعة التخصص (6) .

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المادة التاريخية المتوفرة أساسا (في المصادر والمخطوطات) غالبا ما تكون قد أنجزت لظرف معين من الزمن وبالتالي فهي لا تشفي الغليل ولا تجيب عن تساؤلات الباحثين في الوقت الراهن (7) ، نذكر من بينها على سبيل المثال لا الحصر أثر طرق المعاملات التجارية في نشأة القصور ، وعلاقة النشاط الاقتصادي

ودينامكية الحياة الاجتماعية و الثقافية و ارتباطها بتطور هذه الظاهرة

إن المنهج الأثري هو الكفيل بإعادة كتابة تاريخ المناطق الصحراوية ، و هو الأكثر قدرة على تقديم الإجابات العلمية لكثير من الأسئلة المهمة ، بحيث نستطيع إذا ما اعتمدنا فيه على الطرق الحديثة كاستعمال الصور الجوية (8)، و صور الأقمار الصناعية زيادة عن المعلومات المتوفرة للقيام بوضع خريطة للقصور المتواجدة في الجزائر القائم منها و المندثر ، فوضع مثل هذه الخرائط يكتسي أهمية كبيرة لتحديد المراحل المعنية التي مرت بها عملية بناء و تطور القصور ومراحل انتشار هذه الظاهرة المرتبطة بدون شك بانتشار و انكماش ظاهرة البداوة بالمنطقة (9) .

بعد أن تحدثنا عن أهمية الآثار في الكشف عن تطور عمران القصور و عن توفير المعرفة التقنية التي ستساعدنا على ترميم هذه الأخيرة و المحافظة عنها ، و جب علينا التطرق إلى بعض المشاكل التي قد تقف حائلا أمام كل مختص يريد دراسة عمران القصور و التي ساهمت بقسط كبير في ابتعاد الكثير من المختصين عن دراسة هذا النمط العمراني و بالتالي إهمال هذا الجزء الهام من التراث الوطني و نذكر من هذه الأسباب على سبيل المثال لا الحصر :

- أولا : تأخر الدراسات الحديثة في مجال الآثار الصحراوية عن مثيلاتها في التخصصات الأخرى (10) و التي تهتم بالعمران في باقي أنحاء الوطن ، هذا الأمر يرجع في جوهره إلى :

أ - قلة المختصين بدراسة هذه الآثار في المرحلة الإستعمارية و بعد الإستقلال (11) .

ب - انعدام الإختصاص عند من قام بالإستكشاف و التنقيب و التأليف حول آثار المنطقة .

ج - إن جل الباحثين الأجانب الذين اهتموا بهذه الآثار جاؤوا لأغراض لا صلة لها بالدراسة الأثرية الأكاديمية (12) و مع ذلك فقد قدموا لنا معلومات لا يستهان بها فيما يخص هذا التراث الهام ، لكن عدم تمكنهم من المنهج الأثري في التنقيب و التحليل (13) و قلة معرفتهم بتاريخ المنطقة طبع دراستهم بالسطحية و الوصف ، وفي هذا الصدد أود تقديم أمثلة عن هؤلاء الباحثين الذين اهتموا بمدينة سدراتة و التي وصلت إلينا بعض أخبارهم لتبيين ضعفهم من ناحية المنهج الأثري .

و سنقدم كمثال - هارولد تاري ، و بول بلانشي ، ومارغريت قون برشم - من أوائل من قاموا بزيارة موقع سدراتة من الأوربيين (هارولد تاري) سنة 1881 ، جاء تاري للمنطقة كعضو في لجنة السكة الحديدية العابرة للصحراء ، حيث قام بأعمال كبيرة في موقع المدينة منها إزالة (14) الرمال المتراكمة عن بعض المعالم و المواقع السكنية ، وعلى الرغم من أن هذا الأخير قد ترك لنا بعض المعلومات القيمة عن عمله بموقع سدراتة (15) إلا أنه لم يعتمد على المنهج العلمي الأثري بدليل أنه لم يترك تقارير حول عمله هذا ، وحتى المخطط الذي رسمه والصور التي التقطها و كذا الوثائق التي جمعها ضاعت و لم يصلنا

منها أي أثر ، وهكذا يمكن القول بأن عمل تاري رغم أهميته في دراسة المدينة لم يكن عملا علميا ، بل أنه عمل سلبي من وجهة علم الآثار . فهو لم يستفد من دراسة التواضع الطبقي للتأريخ و لإيضاح المسائل الغامضة ، لقد ترك هذا الرجل إرثا ثقيلا لمن سيأتي بعده من الباحثين و المهتمين الذين سيصعب عليهم القيام بحفرية منهجية تقوم على دراسة دقيقة لكل صغيرة و كبيرة في الأماكن التي نقب فيها و هو ما تم بالفعل .

جاء بعد - تاري - الأستاذ بلانشي سنة 1898 (16) و هو مدرس بثانوية قسنطينة حيث قام بإزالة الرمال عن الجزء الذي عمل فيه تاري و الذي غمرته الرمال و عن أجراد أخرى ، إلا أن مشروعه هذا لم يكتمل إذ عاجلته الموت فتوقفت الأعمال عام 1899 م .

و من أشهر الباحثين الذين نقبوا بسدراتة نذكر " مارغريت قان برشم " السويسرية ، وقد اشتغلت بدراسة الآثار و زارت الجزائر سنة 1947م و قامت بحملتين من الحفر مابين سنة 1951 - 1952م (17) اعتمدت فيهما على بعض الوسائل المهمة في دراسة موقع المدينة وتحديد موضعها ، كالتصوير الجوي و استعمال الطائرة في الاستكشاف والاعتماد على التصوير الأفقي (18) لوضع مخطط التنقيب و رغم كل هذه الجهود العلمية إلا أن عملها ظل ناقصا لعدة أسباب منها :

1- قصر المدة الزمنية التي قضتها في المنطقة

2 - قلة الحملات التنقيبية (و التي كانت إثنين) علما أن موقع

سدراتة يتطلب العشرات من هذه الحملات .

3 - اعتمادها في التنقيب الأثري عن المدينة على أيدي عاملة غير متخصصة (19) و عدم الاعتماد على التحليل المخبري في دراستها .

كل هذه الاعتبارات جعلت عملها ناقصا و اعترفت هي نفسها بذلك حيث قالت أنها في بداية الطريق (20) ولا تستطيع استعمال نتائج حفريتها للوصول إلى المزيد من المعرفة في دراسة عمران المدينة .

- ثانيا : العامل الفلسفي الإيديولوجي : لقد استغل علم الآثار

في العهد الفرنسي لتحقيق أغراض استعمارية محضة كتأييد النظرية الاستعمارية القائلة بأن الجزائر فرنسية و أن فرنسا ما جاءت إلا لتكمل ما فعله الرومان في هذه المنطقة ، فالاستعمار الفرنسي هو سليل الاستعمار الروماني (21) . ولتجسيد هذا المبدأ على الميدان سخرت لمراكز البحث الأثري الأموال الطائلة و الوسائل الهامة و المتنوعة ، بل الكثير من أجهزة الدولة الفرنسية بالجزائر كانت تعمل من أجل ترسيخ و تأكيد هذا الإتجاه . الأمر الذي أعطى الصدارة لا محالة لآثار الحقبة الرومانية و البيزنطية و أدى إلى إهمال آثار الحضارة العربية الإسلامية .

— ٢٢ —

إن كل شيء يرتبط بالنتاج الحضاري للإنسان الجزائري كان بالنسبة للمستشرقين إما خطير أو حقير ، مما أدى ببعض العلماء (الكبار) في الآثار عند إجراء حفرياتهم في المواقع التي عايشت حقبات تاريخية مختلفة و خاصة تلك التي أسست من طرف الرومان و بقيت عامرة في العهود الإسلامية ، من نزع الطبقة المكنزة للتراكم الإسلامي ، باستعمال معدات الأشغال العمومية ، على أساس أن هذه

الطبقة يجب إزالتها لعدم أهميتها العلمية . و الحق أن هذه الطبقة يجب إزالتها لعدم تناسبها مع النظرة الإيديولوجية الإستعمارية ، ومع تطور الاتجاه الاستعماري الذي أعطى الأهمية القصوى لدراسة الآثار الرومانية البيزنطية ، وتبعاً لهذا المنهج فإن العديد من الباحثين الفرنسيين و من هذا حذوهم من الجزائريين (22) و قد صنفوا بعضاً من الآثار الإسلامية و خاصة الريفية منها ضمن نطاق الآثار الرومانية البيزنطية و هو ما اعترف به علماء الآثار الفرنسيين من أمثال "جورج مارسية" (23) و سولنيك (24) اللذان صححا بعض الأخطاء .

لا شك أن الخلط المتعمد سواء كان عن قصد أو من غير قصد جعلنا نرفض العديد من تطروحات و نطالب بإعادة دراسة و تحقيق كل ما كتب تحت فلسفة الجزائر فرنسية " و "جننا لنكمل ما قام به أجدادنا الرومان" .

إن المرحلة الرومانية و المرحلة البيزنطية مراحل هامة في تاريخ الجزائر ، لا سريد تقزيمها ، فسكان الجزائر في تلك الحقبة قاموا بأعمال كبيرة . منما أن أغلبية مناطق القصور و خاصة الغربية منها ، كانت خارج نطاق الليمس و خاصة في المرحلة البيزنطية الأمر الذي جعل إنتاج سكانها العمراني يمتاز بأصالته . إن الكثير من آثار هذه الحقبة في المناطق المستقلة عن النفوذ الروماني (الجبال) و الصحراء التي لم تكن في يوم من الأيام خاضعة للرومان أو التي خضعت له لمدة و جيزة من الزمن ما زالت إلى يومنا هذا تنتظر من ينقب عنها ، إن إخراج هذه الكنوز المعرفية من تحت التراب سيظهر لا محالة مدى مساهمة أجدادنا

في الحضارة الإنسانية و تدحض المقولة الشائعة بين المؤرخين و علماء الآثار الفرنسيين القائلة بأن منطقة المغرب هي خزان للوحشية (25) Reservoir de Barbarie .

ثالثاً : و يعترض الباحث في ظاهرة عمران القصور عائقاً كبيراً يجعل دراسته في بعض الأحيان مستحيلة ، هذا العائق راجع لطبيعة المادة الإنشائية الهشة التي استعملت في بناء هذه الأخيرة ، فبينما اعتمدت الآثار الرومانية على مادة الحجارة المكشوفة (26) ، التي تمتاز بصليبتها و مقارمتها للزمن . واعتمدت الآثار الإسلامية في المناطق الشمالية على الحجارة و إن لم تكن مكشوفة (27) و على مادة الخراصنة (28) و على مادة الأجر المشوى المقاوم للزمن ، فإن عمارة القصور على العكس من ذلك غالباً ما اعتمدت على مواد محلية هشة تمتاز ببداءتها من ناحية المقاومة فهي في العادة مكونة من خليط من حجارة الدبش والجبس و الأتربة كما هو الحال في قصور سدراتة أو من خليط من الأتربة مع بعض الجبس في المناطق التي لا تتوفر فيها الحجارة ، الأمر الذي جعلها لا تستطيع الصمود أمام متقلبات الزمن .

إن الفن المعماري في القصور كما هو الحال في المدينة الإسلامية يهتم بالشكل الخارجي للبناء دون العناية بجهازه الداخلي فعادة ما تغطي الأسوار ذات الجهاز الرديئ بملاط من الجص المنحوت و تزيين بأنواع الزليج و تزخرف بشتى الفنون مما يزيد لها أناقة و بهاء .

إن معظم القصور التي قمنا بزيارتها خلال السنوات الماضية ما كان منها في الجهة الغربية (ولاية بشار) أو في الجهة الشرقية (ولايتا

ورقلة والوادي) في حالة متقدمة من التدهور بسبب العوامل الطبيعية (من رطوبة و جفاف و مطر ورياح) (29) أثرت عليها كثيرا هذا علاوة على ما يقوم به بعض السكان من انتزاع حجارتها للبناء أو بعض الأخشاب المتواجدة بها كوقود ، ومما يزيد الطين بلة أن طريقة بناء القصور تجعل من بناياتها بناءات متعاضدة إذا سقط منها جزء ولم نتسارع في ترميمه تداعى باقي البناء ، فإذا سقط بناء تبعته الأبنية المتصلة به وهذا ما هو موجود حاليا في القصور المهجورة كتماسين (30) .

إن محاولة وضع مخطط لمرحلة النشأة أو التأسيس لكثير من القصور يعتبر أمرا مستحيلا ، لأن الكثير منها مازال مسكونا أو هجر في مرحلة الثمانينات والتسعينات .

فتعمير القصور الطويل (قرون من الزمن) استدعى الكثير من التغييرات من حيث إعادة البناء و الترميم للمنازل و المعالم ، فكل جيل يضيف بعض الإضافات و يزيل بعض الموجودات حتى يتغير وجه البناء ، بل أن الكثير من القصور أعيد بناؤها جزئيا أو كليا بعدما تعرضت للكوارث الطبيعية .

انطلاقا من هذه الظاهرة العمرانية الفريدة ، تتجلى لنا أهمية دراسة القصور التي هجرت في فترة زمنية تحددها الوثائق كما هو الحال بالنسبة - لقصر سدراتة - الذي هجر بعد أن جفت أباراه (31) و لحسن الحظ حفظت لنا الرمال معالم هذا القصر شأنه في ذلك شأن مدينة بومبي (Pompée) التي حفظتها سيول بركان القيزوم .

هذه بعض الأمثلة عما يتعرض الباحث في دراسة الآثار الصحراوية و مع ذلك فإنه رغم كل العوائق التي تواجهنا كلما حاولنا طرق هذا الموضوع الشائك ، فبإمكاننا اليوم ، نظرا لوفرة الباحثين المتخصصين في الميادين المختلفة من البدئ في وضع مخطط علمي يأخذ بالاعتبار في الدرجة الأولى الحفاظ على هذا التراث المعماري الضخم قبل ضياعه و الإسراع في عمليات التنقيب لنتمكن من جمع ما نحتاج إليه من تصورات و معلومات تفيد في صيانة بعض القصور المسكونة والإستفادة من هذا التراث في الميدان السياحي .

و لتحقيق هذا المسعى ينبغي علينا توجيه أعمالنا العلمية كعلماء آثار في تقديم المعلومات اللازمة للمهندس المعماري و المهندس في مواد البناء و الإختصاصات الأخرى حتى يتعاون الجميع على توفير الحلول العلمية للمشاكل التي تواجه سكان القصور من جراء طبيعة مواد البناء نفسها و التي لا تقدر على مقاومة الرطوبة و المياه و الرياح والحرائق و الفيضانات (32) ، هذا بالإضافة إلى كونها موزعا يساعد على تجمع بعض الحشرات الضارة .

وفي هذا الشأن نذكر بأنه قد عولجت بعض السلبيات بداخلها واستعمال مادة التراب في البناء نفسه وهو الشيء الذي لا يزال مستعملا في المناطق الجافة بالولايات المتحدة الأمريكية .

le Sud Algerien . Paris - 1949 P 5 etc ...

T Gstynakie , l'Afrique du Nord l'Histoire , Librairie Chatr Ahmed / 10
Marrakech S.D

/ 11 وهم مازالوا إلى وقتنا الحاضر يعدون على الأصابع .

/ 12 نفس الإنتقاد نجده عند محمد فنتر في كتابه La cité punique de Thapsus
لمن قام بحفريات من قبله في موقع المدينة أيام الحماية .

/ 13 لم تجرى إلى وقتنا الحاضر حفرة في الصحراء طبقت المنهج العلمي .

/ 14 H.Tarry . Excursion Archéologique dans la vallée de l' oued Mya
(Revue d'Ethnographie T2 1883 PP 21 - 34 .

/ 15 Voir aussi du même auteur , les villes Berberes de la vallée de l'Oued
Mya (Revue d'ethnographie t III 1884 PP 1 - 44

/ 16 P Blanchet ,notes sur les fouilles de Sedrata comptes rendus
des inscriptions et Belles lettres 1898 PP 520- 521et PP 285- 319.

/ 17 M Van Berchem . Deux campagnes opcit 127 - 128

/ 18 IBidem P 127 - 128

/ 19 IBidem P 124

/ 20 IBidem P 128

/ 21 IBidem P 138

M.V.Berchem Manuel d'Archéologie médiévale de la fouille à l'Histoire / 1
Paris , PP, 305 etc ...

/ 2 ذلك لكون هذه الأماكن لم تحضى بالدراسة و الإهتمام الكافي من
طرف المصادر التاريخية ، لكونها مناطق شبه مستقلة عن الحكم
المركزي (أرض سيبة) .

/ 3 M.V. Berchem , Deux campagnes de Fouilles à Sedrata 1951 - 1952
Travaux de L'Institut des études Sahariennes , II Semestre 1953 P 125

/ 4 هذا ما هو موجود فعلا في كتب الجغرافيين كالكبري و الإدرسي
وغيرهم .

/ 5 هذه المادة قليلة جدا و هي في أغلبها سطحية ، حيث أن أغلب ما
كتب من طرف المستكشفين الأوربيين و هم في أغلبيتهم من غير ذوي
الإختصاص .

/ 6 لا شك أن الدارس للآثار يعي أكثر من غيره مدى أهمية التنسيق
ما بين الإختصاصات المختلفة للتمكن من فهم الكثير من الأمور و
التغلب على العديد من المشاكل .

/ 7 G Marcais , Projet de recherches Archéologique relatives à la Berberie du
Moyen âge . RA P 472.

/ 8 Voir à cet effet la Thèse de Mustapha Fillah . Recherches sur les
Agglomérations Antiques , le reseau urbain et le paysage rural en Numidie
1986

/ 9 JBarradez Fossatum Africa vue aérienne de l'organisation romaine dans

31 / نحن في الوقت الحاضر نقوم بدراسة هذه المدينة في إطار وحدة بحث تابعة لجامعة الجزائر .

32 / Youcef Nacib , Cultures Oasiennes , Bou- Sâada , Essai d'Histoire Sociale ENAL p 298 .

33 / تمكن الفينقيون و مابعدهم المرابطون و الموحدون من استعمال مادة الخراصنة (pisé) و هو خليط مقنن من التراب والرمل ومسحوق الأجر و الجير و الماء عندما يصبح يابسا يعادل الحجارة في مقاومة الزمن .

Voir à cet effet C.Maitrot , La fortification Nord Africaine , les Archives Berberes Fac III - 1915 - 1916 p 16 etc

22 / الجيلالي صاري : ضرورة صيانة و ترميم المدن العتيقة بالجزائر محاضرة ألقى في الملتقى الدولي الأول حول قلعة بني حماد من 23 إلى 25 سبتمبر 1987 .

23 / G Marcais , Projet opcit p

24 / M.Solignac , Recherches sur les installation hydroliques de Kairouan et des steppes Tunisiennes du VII^e au xi siècle , A.I.E.O d'Alger TX 1952 et 1953.

25 / إن أغلب المصادر الوسيطة ، التي تتحدث عن المغرب عادة ما تكون أوحادية النظرة ، فالمؤلف سوى أكان إغريقي أو روماني أو عربي يصف الشعوب الغريبة عنه عادة بنوع من الإحتقار .

26 / G Marcais , projet de recherches opcit p 472.

27 / أنظر الأمثلة العديدة للبناءات التي استعملت فيها الحجارة المكشوفة و حجارة الدبش في دراسة :

H. Basset , H Terrasse , Sanctuaires et forteresses Almohads , Dessins et relevés par Jean Henerai , Collection Hesperis 1932 p 38 - 52 , etc ...

28 / أنظر في هذا الغرض :

Rachid Bourouiba , l' Architecture militaire de l'Algerie Médiévale O.P.U : 1983

29 / C.P.Donnadien , et H et J M Didillion , habiter le Desert , les maisons/ Mozabites p 90 et suites

30 / قد زرنا هذه المنطقة في سنة 1994 في إطار عمل استكشافي ولاحظنا أن الكثير من القصور في حالة متقدمة من التهدم .